اسم الدرس : تفسير سورة سبأ (١) | الآيات [١ : ٨]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

بإذن الله -عز وجل- نستفتح تفسير سورة سبإ.

منَّ الله -عز وجل- علينا بفضله وكَرَمِه ورحمته -سبحانه وتعالى- بالانتهاء من سورة الأنعام، ونستفتح تفسير سورة سبإ إن شاء الله -عز وجل-.

السورة مكية، بعضهم نقل الإجماع على ذلك، وإن كان هناك خلاف في بعض الآيات ولكنَّ غالب المفسرين على أنها مكية كاملة.

يقول الله -عز وجل-: بسم لله الرحمن الرحيم

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾} [سبإ:١]

أُفتُتِحَت هذه السورة العظيمة بحمد الله -عز وجل- والثناء عليه. و

كما نعلم أن هناك خمس سور بالقرآن الكريم مُفتَتَحة بالحمد، وهي:

- الفاتحة
- الأنعام
- الكهف
- سبإ
- فاطر

افتتاح السورة بـ{الحمد لله} والثناء عليه -عز وجل- له دلالة. وقبل أن نتحدث عن هذه الدلالة؛ فدائمًا نقول أن هذه معانٍ يفتح بها الله -عز وجل- على من يشاء من عباده بفضله -سبحانه وتعالى- ، ويذكر بعض المفسرين فيها أشياء.

قبل أن نذكر لِمَ افتتحت هذه السورة بالحمد؟ نريد أن نعرف بدايةً أمرين:

- أولًا: جو هذه السورة أي الجو والواقع والظروف المعيَّنَة التي نزلت فيها هذه السورة.
- ثانيًا: نعرف البداية بالحمد الذي ذُكِر فيها وفي بقية السور التي افتتحت بالحمد.

إنزال السورة يحدث تغيير في الواقع وفي النفس

ودائمًا نكرر معنى: وهو أن **الله –عز وجل– أنْزَلَ كتابه على واقعٍ حي**، كان الصحابة في معارك سواءً مع أنفسهم أو الشيطان أو المشركين أو اليهود أو المنافقين، في بناء مجتمع، في بيوتهم، في أعمالهم، في علاقتهم بالدنيا، في علاقتهم ببعضهم البعض، في علاقتهم بالمشركين؛ فهذه الحياة –بشكل عام– كانت تحتاج إلى نور من الله –عز وجل. وكان الصحابة لا يستطيعون أن يسيروا في هذه الحياة بعيدًا عن القرآن.

بل قال الله –عز وجل– للنبي –صلى الله عليه وسلم– لما قال الكفار: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} [الفرقان:٣٢]، فتساءلوا لِمَ لَمْ ينزل القرآن مرةً واحدة؟ فقال الله –عز وجل– معللًا: {كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}، أي أن فؤاد النبي –صلى الله عليه وسلم– يحتاج في أوقات الحياة والفتن والمشاكل إلى كتاب الله –عز وجل– ليُثبّته، {كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ} أي أن **الله –عز وجل– يُثبِّت بالقرآن فؤاد النبي–صلى الله عليه وسلم–، فبالتالي الصحابة قطعًا يحتاجون إلى القرآن في كل مشكلة.**

أحيانًا بعض المفسرين –رغمًا عنه– قد لا يكون غرضه شرح معاني القرآن للناس بل يكون غرضه توضيح مُبهَمَات القرآن، فتجد ونحن نشرح القرآن تتحول الآيات إلى حالة من الاستفهام! لديك كلمةً لا تفهم معناها أو دلالتها، أو يقابلك مبحث لغوي أو عَقَدِي أو فقهي فتستوضح هذه الأشياء. لكن –في الواقع– هذه الآيات المتتاليات أو هذه السورة– بالجملة أو مقطع منها– عندما نزلت أحدثت تغييرًا في الصحابة، وغيرت في واقعهم وفي نفوسهم... فيصبح –بعدما كان قبل السورة هناك أزمة ما– بعد السورة قد ازداد يقينًا وإيمانًا وقوة في العقيدة {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾} [التوبة:١٢٤]

السورة كانت تزيد الإيمان فيصبح الصحابي بعد السورة قد أصبح مختلفًا، لديه نور وبصائر وهدى، وازداد إيمانه فأصبح أقوى إيمانًا بعد السورة.

هكذا يجب أن تكون **علاقتك بالقرآن تُزيد من الإيمان واليقين في قلبك، ومن النور في رؤيتك وتُزيد من تقييمك للأشياء**. هذا ما ينبغي أن يحدث بعد فهم السورة.

فلا تكون السورة بالنسبة لك مجرد كلمات عرفت معانيها، أو بعض المباحث اللغوية والفقهية التي تعرفت عليها فحسب. نعم؛ استفادة هذه العلوم وهذه المباحث أمر مهم وهذا هو "علم التفسير": كشف وتوضيح ما كان في القرآن من غموض، **ولكن القرآن بوصفه روحًا وحياة -كما سماه الله -عز وجل-: روحًا، ونورًا، وهدًى، وبينات، وبصائر- فالأصل أن تستفيد من هذه الأوصاف في حياتك**.

واقع السورة

واقع سورة سبإ هو الواقع المكي، وحينما تريد أن تتعرف على واقع السورة فأمامك خيار من اثنين:

- إما أن **يكون هناك سبب نزول واضح**، مثل آيات غزوة أحد في سورة آل عمران فتقوم بدراسة غزوة أحد في السيرة حتى تفهم واقع وقلوب وتفكير الصحابة حينذاك؛ حتى نزل هذا الجزء من القرآن ليعالج هذه المشاكل.

ولكن قد لا يكون هناك حادثة معينة كحادثة الإسراء في القرآن المكي.

- القرآن المدني كان مليئًا بالأحداث، فحينما تقرأ في السيرة -الجزء المدني- من حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- تجد أحداث غزوة بدر، وغزوة أحد، وفتح مكة، وقدوم الوفود، وتآمر اليهود مع المنافقين... فهناك الكثير من الأحداث والمواقف والمشاكل والنقاشات والتشريعات، وكل منهم ينزل فيها آيات... فالأمر به دقة بالنسبة للتعرف على وقت وقوع الحادثة في المدينة، وبالتالي أحوال نزول الآيات وما أحاط بها من أحداث ووقائع.
- أما القرآن المكي أو الواقع المكي فلم يكن به الكثير من الأحداث، فقد كان كلها اضطهاد وأذية للمسلمين، فمكة لا يوجد فيها أحداث كثيرة أو غزوات نستطيع أن نضع بها فواصل... مثلًا تقسيم الدعوة السرية والجهرية -وهناك من لم يعترف به كفاصل- أو هجرة الحبشة أو الإسراء والمعراج أو الهجرة للمدينة.

إذًا؛ فكيف نعرف الواقع الذي كان سائدًا حينها؟

- **نعرفه من الكلمات التي قيلت على الألسن**، سواء قيلت على لسان المشركين في السورة، أو على لسان المؤمنين، أو من خلال القضايا التي تعالجها السورة ...وهذا هو الخيار الثاني لمعرفة الواقع العام للسورة.

فحين نسمع في سورة سبإ ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [سبإ:٣٣]، ونسمع ﴿ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ [سبإ:٣٤]، ونسمع ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ [سبإ:٣٥]، وأيضًا حينما نسمع في سورة سبإ قصة قوم سبأ واسم السورة " سبإ " وما كان عليه هؤلاءِ القوم –قوم سبإ – من الغنى العظيم، وحين نسمع ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ [سبإ:٥] تتكرر مرتين في السورة...

فهذا يعطي إشارة للواقع العام أو الجو العام للسورة؛ وهو أن **هناك أناس لديهم الكثير من الأموال والأولاد، ولديهم تمكين في البلاد، ومترفين، وهناك مجموعة مستكبرة ومجموعة مستضعفة، ويستعمل المستكبرون كل هذه الأدوات –المناصب والأموال والأولاد– ليمكروا بالليل والنهار ويصدون عن سبيل الله** ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سبإ: ٣١-٣٢]

فكان رد المستضعفون على الذين استكبروا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، إذًا؛ فقد استعملوا كل هذا في مكر في الليل والنهار كي ينصرف الناس عن الدين.

إذا؛ جو السورة كان هناك أناس ممكنة ولديها أموال طائلة وأسباب تصد بها عن سبيل الله.

لماذا معرفة جو السورة أمر مهم؟

لأنك يمكن أن تعيش واقعًا مماثلًا له، فيكون الأعداء هم الممكنين في المال والأسباب والقوة، والداعية ليس لديه أيًا من ذلك.

ماذا يمكن أن يقع في صدر الداعية حينما يواجه العدو الأقوى مالًا وأسبابًا؟

يمكن أن يقع في صدره إحباط ويأس، ويمكن أن يفكر في ألا يستمر أو أن يلتفت عن الطريق، أو يقع في صدره أن يغير منهجه، أو يُداهن وينافق؛ فبدون أن تُذكر هذه الخواطر تجد أن من يقرأ سورة سبأ تُحل لديه هذه الإشكاليات. أي أن **سورة سبأ تحل مشاكل الداعية في واقع مُشابه، وتواجه المشركين الظانّين والمعتقدين أنهم {أكثر أموالاً وأولاداً} وتستخرج المستضعفين من سلطة المستكبرين.** تجد هذه السورة -دون أن تشعر- تعالج كل الفئات: الداعية، المؤمن، المجاهد، من يعيش في حال الاستضعاف، المستضعف المنبهر بالمستكبرين، تخاطب المستكبرين؛ كل هؤلاء تخاطبهم السورة.

نأتي للتساؤل الثاني؛ وهو

لماذا بدأت هذه السور بالحمد؟

نجد أن في كل مرة تبدأ سورة من سور القرآن بالحمد نجد فيها وصفًا لله عز وجل يتناسب مع هذه السورة.

فمثلاً:

- في سورة الفاتحة {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

- في سورة الكهف {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا}

- سورة الأنعام {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}

- سورة سبأ {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} ولم يقل هنا {الذي خلق السماوات والأرض}..

- فاطر: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}

- بالنسبة لسورة الفاتحة، ملخص سورة الفاتحة، والذي قال فيه الله سبحانه: (هذا بيني وبين عبدي)[1]، هو الطلب الذي جاءت من أجله مقدمات سورة الفاتحة وهو: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، ففي سورة الفاتحة نجد أن البشر يحتاجون إلى هداية، ومن لم يمن الله -عز وجل- عليهم بالهداية إما أن يكونوا مغضوبًا عليهم أو من الضالّين. والذين نجوا من الغضب ومن الضلال من هم؟ هل هم الذين اجتهدوا؟! لا؛ بل هم {الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} **فمن نجا من الغضب ومن الضلال ليسوا من جاهدوا أو اجتهدوا؛ بل هم الذين أنعم الله عليهم.**

  فنحن في أول سورة الفاتحة نقول الحمد لله أنّ لنا ربًا ينقذنا من الضلال، أنت تحتاج هنا للربوبية.

- أما في سورة الأنعام؛ فقد أخبرنا الله تعالى بوجود الظلمات والنور، فعندما تقرأ سورة الأنعام تجد حجم الضلال الذي سقط فيه المشركون، والسفاهة التي وقع فيها المشركون، لدرجة أن يقتل الرجل منهم ولده! -وتكلمنا عن هذا بالتفصيل في سورة الأنعام- وهي من أكثر السور التي جاء فيها الكلام عن القرآن أنه بصائر، وأنه بينات، وأنه هدى، وهي من أكثر السور التي عددت أوصافًا لوضوح وبيان القرآن.

  فمن البداية تقول: الحمد لله الذي جعل الظلام واضحًا والنور واضحًا {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}.

- وعندما تقرأ سورة الكهف سترى ما فيها من فتن عظيمة، فتنة السلطان الظالم، فتنة المال، فتنة العلم، والشيطان، فكيف أنجو من هذه الفتن؟ فيقول الله: لقد أنزلت إليك قرآنًا، فتقول: الحمد لله الذي أنزل إليّ قرآنًا، كما ورد في أول السورة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}.

- أما عندما تقرأ في سورة سبأ سترى كمية الأموال والأسباب التي يملكها أهل الباطل، وقدر التمكين الذي مُنح لأهل الباطل، وحجم الاستكبار الذي وصلوا إليه، والمستضعفين الذين تم خداعهم، فالقرآن يخاطبك في بداية سورة سبأ أن احمد الله أن كل شيء ملك له -سبحانه وتعالى-، وأنهم لا يملكون مثقال ذرة إلا بإذنه، فتبدأ سورة سبأ تُطمئن نفسك من البداية

---

١ [عن أبي هريرة:] مَن صَلّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فيها بأُمِّ القُرْآنِ فَهي خِداجٌ ثَلاثًا غَيْرُ تَمامٍ. فقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إنّا نَكُونُ وراءَ الإمامِ؟ فقالَ: اقْرَأْ بها في نَفْسِكَ؛ فإنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: قالَ اللَّهُ تَعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ}، قالَ اللَّهُ تَعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قالَ اللَّهُ تَعالى: أثْنى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قالَ: {مالِكِ يَومِ الدِّينِ}، قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وقالَ مَرَّةً فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي، فإذا قالَ: {إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ} قالَ: هذا بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ: {اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عليهم غيرِ المَغْضُوبِ عليهم ولا الضّالِّينَ} قالَ: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٣٩٥ • [صحيح]

فتقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي له﴾ قالوا: ﴿له﴾ هذه اللام أي: له خلقًا، وملكًا، وتصرفًا. خلقًا؛ هو الذي خلقهم، وبعدما خلقهم يملكهم، وبعد أن يملكهم يتصرف فيهم كيفما يشاء.

فعندما ترى أن أهل الباطل معهم كل الأسباب والأموال، مع ذلك عليك أن تحمد الله، لماذا؟ لأن هؤلاء لم ينتزعوها من ملك الله -سبحانه وتعالى- حاشاه أبدًا.

فالحمد لله أن لي ربًا يهديني كما في سورة الفاتحة؛ الحمد لله أن الله وضح الظلمات والنور؛ الحمد لله أن الله أنزل القرآن؛ الحمد لله أن الله يملك كل شيء.

ففي سورة سبأ نقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أن كل شيء يملكه الله -عز وجل-. دائمًا الحمد يأتي في الأزمة وبعد الأزمة، فمثلًا إذا لم تجد طعامًا تقول الحمد لله، وإذا انتهيت من الطعام تقول الحمد لله أيضًا.

الظالمون يعذبونك تقول: الحمد لله، وبعد إهلاك الظالمين نقول: الحمد لله، كما في الآية: ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾. لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا تمَّ له أمر، قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات)، وإذا حدثت مصيبة، قال: (الحمد لله على كل حال)[٢].

فنحمد الله قبل الأزمة لأننا نوقن بأن الله -عز وجل- هو أهلٌ للحمد حتى في هذه الأزمة، وإن كنا لا نفهم ولا نستوعب ما أوجه الثناء على الله في الأزمة، فقد لا يستوعب الإنسان ذلك لقصور نظره وحبه العاجلة وهلعه، فمن الممكن أن تحدث لك أزمة مادية في حياتك، فلا بدَّ أن تقول الحمد لله، كيف؟ وأنا في أزمة! الله -عز وجل- يعلم أن هذا هو الخير لك، أن تُبتلى بهذه الأزمة، فتقول الحمد لله، وعندما تمر الأزمة نقول أيضًا الحمد لله، فقبل التمكين نقول الحمد لله، وبعد التمكين نقول الحمد لله.

٢ [عن عائشة أم المؤمنين:] كان إذا رأى ما يحب قال: الحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وإذا رأى ما يكره قال: الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٤٧٢٧ • صحيح • أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٦٦٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٧٨) باختلاف يسير

بداية السورة:

مَن هو الله الذي تحمده أنت في هذه السورة؟

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

فتبدأ السورة بـ {الحمد لله}، له الثناء الحسن –سبحانه وتعالى–، أهلٌ لأن يحمد، وتكلمنا عن الفرق بين الحمد والشكر في بداية سورة الأنعام؛

- وأن الحمد أن نثني على الله لأنه أهل له؛ وليس لسبب،
- أما الشكر فيكون عندما يقدم لك أحد معروفًا؛ فتشكره عليه، إنما الحمد فبدون أن يعطيك شيئًا، فأنت تثني عليه سبحانه، لأن من فيه هذه الصفات أهل للحمد، ولله المثل الأعلى، فالله –عز وجل– أهلٌ للحمد حتى ولو لم تشعر أو تفهم ما الذي يحدث، هو –عز وجل– أهلٌ لأن يحمد على كل حال.

{الْحَمْدُ لِلَّهِ} ودائمًا يأتي بعد الحمد الصفة التي تناسب السورة.

{الحمد لله الذي} وتكلمنا عن {الذي} من قبل؛ فهو الاسم الموصول الذي يُعرِّف. مَن هو الله الذي تحمده أنت في هذه السورة؟ **الذي يملك كل شيء، مهما سيطر أهل الباطل على ثروات الأرض، وعلى الأسباب، وعلى الأموال، الله –عز وجل– يملك كل شيء** {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} [محمد:٤].

القرآن يقول لك ارتق واصعد لأعلى

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} أهل الباطل يسيطرون على ما في الأرض فتبدأ السورة تنقلك إلى عالم السموات، ما الأرض إلا ذرة في الكون، ماذا تعني في وسط الكون؟! ماذا تعني بين الأفلاك والأجرام السماوية والنيازك والشمس! بل والمجموعة الشمسية كلها لا تساوي شيئًا بالنسبة للكون، فما الذي يملكونه إذًا؟

وهذه من أهم مزايا القرآن، فدائمًا من يعيش في الواقع، يكون دائم التأثُّر به، وبما يحدث من حوله، ويشعر بضيق، فيقول لك القرآن: ما هذا الضيق الذي تعيش فيه؟ ارتقِ واصعد لأعلى، فالقرآن يجعلك تنظر إلى العالم من مكان عالٍ، ما هذا الضيق الذي تعيش فيه! هناك الدار الآخرة، ويوجد عالم من الغيب، وملائكة، وهناك روحٌ ستصعد إلى السماء، ما الذي يجعلك تعيش في هذا الضيق!

لذلك وكما تكلمنا في سلسلة الحق والباطل أنَّ الذي يختار ألا يؤمن إلا بما يرى، "لن نؤمن حتى نرى"، هذا يعيش في ضيق، لأنه نزل بمستوى إنسانيته إلى مستوى الأنعام، فالأنعام هي التي لا تؤمن إلا بما ترى، فأنت لا بدَّ أن ترتقي، فالله –سبحانه وتعالى– يملك ما في السماوات، بدأ بالسماوات!

و{ما في السموات} "ما" **هذه للتفخيم والتعظيم والإبهام**، فلا يعلم ما في السماوات إلا الله، ولا يعلم ما في الأرض إلا الله، هذا في الدنيا، أثناء الابتلاءات التي تقع، وأثناء جو الاستضعاف، وأثناء ما هم عليه من مكر الليل والنهار، وأثناء ما هم عليه من كونهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأثناء كونهم مترفين، أثناء كل هذا أنت تقول الحمد لله، لماذا؟ لأن الله –عز وجل– يملك ما في السماوات وما في الأرض.

{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ} ولم يقل: "والحمد لله في الآخرة"، {له الحمد} اختصاص؛ أي له الحمد وحده. فقد يقول قائل: الله يُختص بالحمد في الدنيا أيضًا فلم تخصيص الآخرة؟ ذلك مثل الملك {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} الله مالك كل الأيام، فما وجه التخصيص؟ لأنه في يوم الدين يظهر الملك جليًا أنه لله، لا ينازع اللهَ فيه أحدٌ، فلن يأتي أحد يوم القيامة ويقول: هذا المكان لي، أنا من يحكم، وأنا من يأمر! بل الكل صامت يوم القيامة، لا أحد يتكلم، لا تسمع أي صوت أو همس، فكذلك الأمر عندما تتضح الحقائق في الآخرة، قد تحدث أشياء في الدنيا ولا نفهم الحكمة منها، لماذا يمد الله للكافرين في الرزق والمال؟ لماذا يمكنهم أكثر منا؟ لماذا يُبتلى المؤمن في الدنيا؟ لماذا فلان يُعاقب؟ أنت لا تفهم {ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف:٨٢]، ثمة أشياء كثيرة تحدث في الدنيا أنت بحاجة لأن تُأوَّل لك، أن

تُشرح لك، كل هذا سيتضح في الآخرة، قد ترى جزءً منه في الدنيا، لكن **الحقيقة الواضحة الكاملة، والجزاء الواضح الكامل سيكون في الآخرة.**

فالكل سيحمد الله -عز وجل- في الآخرة، بل قيل في الأثر: (يدخل أهل النارِ النارَ وتلهج ألسنتهم بالحمد)، ليس بالشكر بل بالحمد، يدخلون النار وتلهج ألسنتهم بالحمد، فهم علموا كم أن الله عظيم، يقول تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} [الإسراء:٥٢] في سورة الإسراء قيل من معانيها: أن أهل الأرض جميعًا مؤمنهم وكافرهم يقولون حين يقومون من البعث: الحمد لله، لماذا؟ لأنهم رأوا العظمة.

"الحمد لله" ليست جزاء خير أو شر فقط؛ بل تقول: الحمد لله عندما ترى عظمة الذي يُثنى عليه، فالله -عز وجل- هذا الرب العظيم أهلٌ لأن يحمد، فعندما يروا عظمة الله وعلموا كم قصروا في عبادته؛ علموا حينها أنهم كانوا مخطئين، عندما أنكروا صفات الله -عز وجل-؛ علموا أنهم كانوا يستحقون الهلاك، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث بعدما ذكر أن (الحسنة بعشر أمثالها وتضاعف سبعمائة ضعف[٣] والسيئة بواحدة ولو هم المسلم بسيئة ولم يفعلها فله حسنة)، ثم بعد كل هذا يدخل النار؟!، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- في نهاية الحديث قال: (ولا يهلك على الله إلا هالك) أي أنه يستحق الهلاك.

{وله الحمد في الآخرة} أي كل شيء سوف يظهر على حقيقته، ستتعجب عندما تعلم أن فلانًا ابتُلي في الدنيا ليرفع درجاته، وستتعجب عندما ترى أن أولئك الذين تركهم الله في الدنيا دون عذاب {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران:١٧٨]، أرادهم الله أن يصلوا للدرك الأسفل؛ فهو أصرَّ على أن يصل للدرك الأسفل من النار!؛ نفاق يتبعه نفاق، وكذب وافتراء على الله -عز وجل-، وكان المسلمون يتأذَّون منه، وهو مُصرٌّ على أن يصل للدَّرك الأسفل -والعياذ بالله-، وهناك أناس تركهم الله حتى يتوبوا، فكل ذلك سيظهر يوم القيامة، والكل سيحمد الله -عز وجل-، والنَّبي صلى الله عليه وسلم عندما يسجد تحت العرش؛ يفتح الله -عز وجل- عليه بمحامد الشفاعة فيحمد الله -عز وجل- في الآخر لكي يبدأ الحساب.

---

٣ [عن عبدالله بن عباس:] عَنْ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فِيما يَرْوِي عن رَبِّهِ تَبارَكَ وتَعالى، قالَ: إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ، فمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ سَيِّئَةً واحِدَةً. وفي رواية: وزادَ: ومَحاها اللَّهُ ولا يَهْلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٣١ • [صحيح]

الله حكيم حتى وإن لم تفقه الحكمة

{وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير} هنا نقطة مهمة في السورة؛ كل الأفعال التي تحدث حتى لو لم تفقه الحكمة منها فلا بدَّ أن توقن أن الله حكيم.

مثال ذلك لو أن إنسانًا يملك أشياء كثيرةً؛ فمن الممكن أن يتصرف فيها بسفاهة؛ لديه أموال كثيرة فتجده ينفق في أي شيء، وليس عنده حسن تصرُّف في المال الذي يملكه، وبالتالي ليس لديه حكمة، وحتى يكون الإنسان حكيمًا لا بدَّ أن يكون لديه علم؛ لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، فحتى يكون لديك حكمة لا بدَّ أن تعرف أولًا ما هو الشيء وما هو موضعه. أما الخبرة فهي مرتبة أعلى من العلم، على سبيل المثال: إنسان درس الطب، فأصبح لديه علم الطب، ولكن حتى يتوظف في مستشفى أو حتى يفتح عيادة لا بدَّ له من شهادة خبرة.

كما حدث بين النبي صلى الله عليه وسلم وسيدنا موسى عليه السلام في المعراج، عندما فُرضت الصلاة، عندما نصح سيدنا موسى عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بالرغم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الأفضل، ولكن سيدنا موسى قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (إني عالجت بني إسرائيل قبلك[٤] –فأنا لدي خبرة في التعامل مع البشر– فارجع إلى ربك ليخفف الخمسين صلاة لأن قومك لن

٤ [عن مالك بن صعصعة الأنصاري:] أنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حَدَّثَهُمْ عن لَيْلَةِ أُسْرِيَ به: بيْنَما أنا في الحَطِيمِ، - ورُبَّما قالَ: في الحِجْرِ - مُضْطَجِعًا إذْ أتانِي آتٍ، فَقَدَّ: قالَ: وسَمِعْتُهُ يقولُ: فَشَقَّ ما بيْنَ هذِه إلى هذِه - فَقُلتُ لِلْجارُودِ وهو إلى جَنْبِي: ما يَعْنِي به؟ قالَ: مِن ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إلى شِعْرَتِهِ، وسَمِعْتُهُ يقولُ: مِن قَصِّهِ إلى شِعْرَتِهِ - فاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إيمانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بدابَّةٍ دُونَ البَغْلِ، وفَوْقَ الحِمارِ أبْيَضَ، - فقالَ له الجارُودُ: هو البُراقُ يا أبا حَمْزَةَ؟ قالَ أنَسٌ: نَعَمْ - يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عليه، فانْطَلَقَ بي جِبْرِيلُ حتَّى أتَى السَّماءَ الدُّنْيا فاسْتَفْتَحَ، فقِيلَ مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فإذا فيها آدَمُ، فقالَ: هذا أبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ السَّلامَ، ثُمَّ قالَ: مَرْحَبًا بالِابْنِ الصَّالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أتَى السَّماءَ الثَّانِيَةَ، فاسْتَفْتَحَ قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إذا يَحْيَى وعِيسَى، وهُما ابْنا الخالَةِ، قالَ: هذا يَحْيَى وعِيسَى فَسَلِّمْ عليهما، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قالَا: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي إلى السَّماءِ الثَّالِثَةِ، فاسْتَفْتَحَ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إذا يُوسُفُ، قالَ: هذا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أتَى السَّماءَ الرَّابِعَةَ فاسْتَفْتَحَ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: أوَقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به، فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إلى إدْرِيسَ، قالَ: هذا إدْرِيسُ فَسَلِّمْ عليه فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي، حتَّى أتَى السَّماءَ الخامِسَةَ فاسْتَفْتَحَ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قيلَ: مَرْحَبًا به، فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فإذا هارُونُ، قالَ: هذا هارُونُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أتَى السَّماءَ السَّادِسَةَ فاسْتَفْتَحَ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: مَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ أُرْسِلَ

يقدروا عليها)، وحتى عندما خفف الله الصلوات لخمسٍ فقط، قال له سيدنا موسى عليه السلام: (ارجع إلى ربك)، فكان يرى أن الناس لن تلتزم حتى بخمس صلوات!، لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (إني استحييت من ربي)، فظن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمره الله بخمسين صلاة أن لا بأس في ذلك؛ لأنه اعتقد أنه لن يكره الصلاة أحد، والآن تجد من يفرط بهذه الخمس!، فالخبرة فارقة البشر حتى يكون لديهم خبرة لا بدَّ لهم من التجربة والخطأ، ، أما الله عز وجل فيقول: {وهو الحكيم الخبير} الله عز وجل لا يحتاج إلى الخبرة فهو الخبير.

قال العلماء: الخبير هو الذي يعلم أوائل الأمور وعواقبها، إذًا الله عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون فهو الحكيم الخبير، فالذي يدبر ما يحدث بين المسلمين والمشركين هو الذي يملك كل شيء وله ما في السموات وما في الأرض هو الحكيم وهو الخبير فاطمئن، بداية تسكب الطمأنينة في قلبك، فتدخل معركة الحق والباطل وأنت مطمئن؛ لأن الله –عز وجل- يملك كل شيء وهو الحكيم وهو الخبير.

ليس هذا وحسب؛ بل هناك آفاق وعوالم تُفتح على قلب المسلم ولا يفقه ذلك إلا المسلم؛ فالله عز وجل يقول: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾} [سبإ:٢]، لا يوجد عقل بشري عندما يريد أن يتحدث عن علم أحدهم يقول مثل هذه الجملة؛ هذه الجملة من عند الله، ولا أحد يستطيع أن يقول مثل هذه الجملة، ولا أحد قبل نزول هذه الآية كان يتصور أن هناك أشياء لا توصف ولا تعد؛ فحرف {ما} هذا هو أبهم حرف في اللغة {يَعلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرضِ وَما يَخرُجُ مِنها وَما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعرُجُ فيها وَهُوَ الرَّحيمُ الغَفورُ}.

إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: مَرْحَبًا به، فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فإذا مُوسَى، قالَ: هذا مُوسَى فَسَلِّمْ عليه فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قيلَ له: ما يُبْكِيكَ؟ قالَ: أبْكِي لأنَّ غُلَامًا بُعِث بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِن أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بي إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وقدْ بُعِثَ إلَيْهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: مَرْحَبًا به، فَنِعْمَ المَجِيءُ جاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فإذا إبْرَاهِيمُ قالَ: هذا أبُوكَ فَسَلِّمْ عليه، قالَ: فَسَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ السَّلَامَ، قالَ: مَرْحَبًا بالِابْنِ الصَّالِحِ والنبيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ إلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وإذَا ورَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قالَ: هذِه سِدْرَةُ المُنْتَهَى، وإذَا أرْبَعَةُ أنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ونَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلتُ: ما هذانِ يا جِبْرِيلُ؟ قالَ: أمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ في الجَنَّةِ، وأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ والفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لي البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بإنَاءٍ مِن خَمْرٍ، وإنَاءٍ مِن لَبَنٍ، وإنَاءٍ مِن عَسَلٍ، فأخَذْتُ اللَّبَنَ فَقالَ: هي الفِطْرَةُ الَّتي أنْتَ عَلَيْهَا وأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَومٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ علَى مُوسَى، فَقالَ: بما أُمِرْتَ؟ قالَ: أُمِرْتُ بخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَومٍ، قالَ: إنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَومٍ، وإنِّي واللَّهِ قدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وعَالَجْتُ بَنِي إسْرَائِيلَ أشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى فَقالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى فَقالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى فَقالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَومٍ، فَرَجَعْتُ فَقالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَومٍ، فَرَجَعْتُ إلى مُوسَى، فَقالَ: بمَ أُمِرْتَ؟ قُلتُ: أُمِرْتُ بخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَومٍ، قالَ: إنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَومٍ، وإنِّي قدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وعَالَجْتُ بَنِي إسْرَائِيلَ أشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حتَّى اسْتَحْيَيْتُ، ولَكِنِّي أرْضَى وأُسَلِّمُ، قالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أمْضَيْتُ فَرِيضَتي، وخَفَّفْتُ عن عِبَادِي

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٨٨٧ • [صحيح]

الكون يضج بالحركة، فكمّ الأشياء المادية والمعنوية التي تنزل من السماء أنت لا تعلمها، وكمّ الأشياء التي تدخل وتخرج من الأرض أنت لا تعلمها! تخيل لو كُلف البشر بإحصاء ذلك! كل ذرة وكل قطرة مطر وشحنة كهربائية أو عقوبة أو عذاب أو فضل أو نعمة أو خير أو رزق ينزل من السماء، أو عبادة أو دعاء أو تسبيحة أو تحميدة أو عمل سيئة أو نظرة أو سوء ظن أو أي مشاعر، تخيل كل هذا يصعد إلى السماء، وكل ذلك ينزل إلى الأرض سواء الماديات أو المعنويات. أغلق عينيك وتخيل كمّ الأشياء المادية والمعنوية التي تنزل من السماء وتدخل الأرض! الله عز وجل يعلم كل ذلك، بل "ما يعزب عنه مثقال ذرة"!

{ما يعزب} أي ما يغيب؛ لا توجد لحظة تغيب عنه –سبحانه وتعالى– فما هذا العلم المطلق!

هذا القرآن يخاطب نفسًا بشريةً، فأنت بحاجة لهذه الآيات، ليست مجرد أوامر بأن تنصر الحق وتحارب الباطل، لا؛ أنت بحاجة لتهيئة قبل الخوض في معركة الحق والباطل؛ لأن نفسك البشرية ضعيفة، لذلك عندما قال الله عز وجل لسيدنا موسى عليه السلام {اذهَب إِلى فِرعَونَ إِنَّهُ طَغى} [طه:٢٤] لم يقل سيدنا موسى: "نعم سأذهب"، ولكن قال: {رَبِّ اشرَح لي صَدري وَيَسِّر لي أَمري وَاحلُل عُقدَةً مِن لِساني يَفقَهوا قَولي} [طه:٢٥:٢٨]. وعندما قال الله عز وجل: {اذهَبا إِلى فِرعَونَ إِنَّهُ طَغى فَقولا لَهُ قَولًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخشى} [طه:٤٣–٤٤]، قالا: {رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَن يَفرُطَ عَلَينا أَو أَن يَطغى} [طه:٤٥] فكانا بحاجة أن يسمعا من ربهما: {قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ}!

هل كان سيدنا موسى عليه السلام لا يعلم أن الله يسمع ويرى؟ بلى يعلم؛ ولكن كان بحاجة لأن يسمعها من الله، بحاجة لأن يقول الله عز وجل له: أنا معك، لن يمسك فرعون بسوء، أنا أسمع كل شيء، وأرى كل شيء وناصية فرعون بيدي، سيدنا موسى كان بحاجة لسماع ذلك وهو ذاهب لفرعون، وأنت كذلك تحتاج لهذه الآيات في المعركة، أنت تحتاجها في خط حياتك، تحتاج أن تتلوها مرة بعد مرة؛ فتنتهي من تلاوة سبأ ثم فاطر ويس ثم تنتهي من آل حم لتعود للبقرة، أنت تحتاج الآيات وإلا ستضل – فكما ذكرنا– الثبات يكون بالقرآن لا بالعضلات.

{يَعلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرضِ وَما يَخرُجُ مِنها وَما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعرُجُ فيها}

العالم واسع؛ انفتاحٌ لا يعلمه إلا الله –عز وجل–، فالكون أكبر بكثير من هؤلاء القلة من الناس المحيطين بك، فالإنسان قد يعتقد أن حل الأزمة في موت الظالم الفلاني، لا؛ بل الكون أكبر من ذلك بكثير،

هذا الظالم لا يساوي شيئًا في قدرة الله عز وجل، قد يكون إهلاك هذا الظالم ببعوضة أو بقطرة دم تتجمد في مخه فيصاب بالشلل بقدرة الله، فلا تضخم الأمور، فعندما تتأمل في الكون الواسع تكتشف أن الأمر بسيط.

- ومن الأشياء التي تعرج وتنزل: الأعمال والأرزاق،
  أعمال البشر سواء أكانت خيرًا أو شرًا، والأرزاق والعقوبات.

فالناظر قد يتوقع أن يحدث تناسب كامل بين أعمال العباد من شر وبين العقوبات، وبين أعمال العباد من خير وبين الأرزاق، لكن الغالب ليس كذلك، الغالب أن **كمية الأرزاق التي تنزل من السماء عجيبة؛ بالرغم من أن كمية المعاصي التي تصعد كثيرة!** فلذلك كان ختام الآية قول الله عز وجل: {وهو الرحيم الغفور} . أي لو عامَلَنا الله –سبحانه وتعالى– بالعدل لكان الأمر مختلفًا تمامًا، ولكان لكل معصية تصعد صاعقة تنزل على مرتكبها {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [فاطر:٤٥]، ولكن هناك دار للجزاء في الآخرة، أمَّا في الدنيا فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله[٥]، يدَّعون له الولد ومع ذلك يرزقهم ويعافيهم). يصعد منهم سبٌّ لله عز وجل وينزل عليهم منه رزق وعافية! تعرج أعمالهم السيئة إلى السماء –عروج كتابة وحفظ لا عروج قبول، إذ لا يصعد إلى الله إلّا الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، كما قال الله تعالى في سورة فاطر: {... إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصّالِحُ يَرفَعُهُ}.

ختام الآية بِـ{وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} له دلالتان:

- إما أن يكون معناه أن الذي ينزل من الرزق لا يتناسب مع الشرور، وهذه رحمة ومغفرة من ربنا عز وجل؛
- أو {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}: أي إن ذلك كان يستوجب من العباد كمًّا من الشكر –وقد ذكر في السورة غير ما مرة كآية {وقليل من عبادي الشكور} وقرية سبأ الذين لم يشكروا نعم الله–، فهذا الوصف لله تعالى والخير كان يستلزم من الناس الشكر، ولكن كثيرًا من الناس لم يشكروا فعاملهم ربهم باسمه الرحيم الغفور.

٥ [عن أبي موسى الأشعري:] ما أحَدٌ أصْبَرُ على أذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ له الوَلَدَ، ثُمَّ يُعافِيهِم ويَرْزُقُهُمْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٣٧٨ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤)

مشكلتهم أنهم سيحاسبون

بعد كل هذه المشاهد التي تجعل أي إنسان يخضع لله عز وجل، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} بعد كل هذا ماذا قالوا؟ هل قالوا آمنَّا؟ كلا، بل قالوا: {لَا تأتينا السَّاعَةُ}.

لو عدنا لنقرأ الآيتين السابقتين مرة أخرى: { لْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ } تركوا كل هذا وركزوا على كلمة {وله الحمد في الآخرة}! لم ينكروا أن الله { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} لم ينكروا أن الله {حكيم خبير}، ولم ينكروا أن الله {يعلم}، **مشكلتهم الوحيدة أنهم سيحاسبون!** قد يعترف أحدهم أن الله يملك كل شيء، وهو الحكيم الخبير، لكنه ينكر الحساب والبعث؛ لأنه يريد أن يفعل كل ما يحلو له {بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ} [القيامة:٥]. فترك كل ذلك وقال: {لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ}، تركيزه الأكبر على قضية الساعة، عَلِمَ أنه ستأتي عليه لحظة معينة يحاسب فيها على كل أفعاله، فكانت أول جملة قالها: {لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ}.

النهاية الحقيقية ليست في الدنيا

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

لا بدَّ أن ننتبه إلى أول ما قاله الكفار في هذه السورة، سورة سبأ كذلك سورة الأنعام؛ من أكثر السور التي جاء فيها الأمر بِـ{قل}، سورة الأنعام وردت فيها كلمة "قل" أكثر من أربعين مرة، وسورة سبأ كثر فيها كذلك، لدرجة أن بها **أربع آيات متتاليات في ختام السورة تبدأ بِـ{قل}؛ وذلك لأن هناك هجوما إعلاميا شرسا، واستعمال الأموال والأسباب في إعداد ترسانة إعلامية ضخمة للصدّ عن سبيل الله**، وهذا الذي سماه الله عز وجل في سورة سبأ: {مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ}. **فلا بد أن تواجه هذا الإعلام الشرس بالقرآن**. لذلك عندما قالوا: {لَا تأتينا الساعة} رد عليهم المؤمنون هنا في الحال وبقوة ولم يعرضوا عنهم: {قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي} تقسم بالربوبية، بمعنى أن الله عز وجل يعاملني بمقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى، فهو الذي رباني بالنعم وأنزل إلي الهدى، وأعلم أنه حكيم؛ محال أن يتركني بلا جزاء، لن

ينتهي الحال بعدم وجود ساعة وبعث وحساب. يستحيل أن تنتهي الحياة على هذه الحال. لا يُعقل أن الذي يُضرب ويُعذب ويموت في الدنيا تكون هذه هي نهايته، من غير أن يعاقب قاتله!

أنا أثق بربي وأوقن أن النهاية الحقيقية ليست هنا، يستحيل أن تكون نهاية أصحاب الأخدود هي أن يلقَوا في النار، إنما النهاية هي أن يدخلوا الجنة، ويطَّلعون وهم في الجنة على عذاب من كان يعذبهم في الدنيا، وتُشفى صدورهم، هذه هي النهاية؛ هذا هو الرب، هذا ربي وأنا أثق بوعده.

{قل بَلَى وربي} والله لتأتي الساعة. واستعمال القسم يكون:

- إما بغرض تأكيد الموضوع للنفس،
- أو لنؤكده لإنسان منكِر له، وكلما اشتد الإنكار يشتد التأكيد، وهنا وصل الكفار لقمة الإنكار؛ فجاء القسم: {قل بَلَى وَرَبِّي لتأتينكم} بنون التوكيد، أي الساعة.

واستعمل نفس اللفظ الذي قالوه، قالوا: {لا تأتينا}، قال بلى {لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ}، ولم يقل "لتأتينا الساعة"، بل قال: {لتأتينكم}، مع أن الساعة ستأتي للجميع، ولكن قال له: نعم أنت ستموت، نعم أنت ستحاسب، نعم أنت ستجزى بكل فعل فعلته!

الواقع لا يتجزأ

وهذا مهم في الرد على الشبهة، **عندما يطرح أهل الباطل شبهة؛ لا بد أن يكون الرد مناسبا مفصّلا**. هنا نفهم خطورة مهمة أهل العلم عندما يتحدثون في الواقع، فالواقع لا يتجزأ. {ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلمَ ٱلَّذِىَ أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلحَقَّ}[سبإ:٦]

ماذا تعني عبارة "الواقع لا يتجزأ"؟ عند حدوث واقع معين من المشركين أو من أهل الباطل أو المنافقين، عندما ترد عليهم فلا ترد على جزء، ولكن لا بد أن ترد على الكل. فلما قالوا: {لَا تَأۡتِينَا} أتت نفس اللفظة {لَتَأۡتِيَنَّكُم} بل زاد عليها، ما سبق يُفهم من الآيتين الآتيتين.

{عَلِمِ ٱلغَيبِ} **الإنسان –والعياذ بالله– عندما ينكر الغيب فإنه ينزل إلى مستوى الأنعام**. {عَلِمِ ٱلغَيبِ} هم يقولون لا يوجد شيء غير الذي نراه، لا يوجد شيء يسمى آخرة ولا غيب، فبدأت

الآيات بتأكيد وجود الغيب وأن الله يعلمه. {عَلِمِ ٱلغَيبِ لَا يَعزُبُ عَنهُ مِثقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَلَا فِى ٱلأَرضِ وَلَآ أَصغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ} لماذا جاء التفصيل في هذا الموضع؟ التفصيل في قوله: { لَا يَعزُبُ عَنهُ مِثقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَلَا فِى ٱلأَرضِ وَلَآ أَصغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ}، قالت جماعة من المفسرين: أن المقصد من هذا الرد إخبارهم أن كل ما يفعلونه يحصيه الله عز وجل،

- فقيل: هذه دلالة العلم بأفعالكم؛
- وقال بعضهم أن المقصد هنا: دلالة القدرة على البعث؛ وكلا المعنيين صحيح.

من صفات الله تعالى التي يرد بها على المنكرين: العلم والقدرة

الداعية عندما رد عليهم ذكر صفات معيَّنة لله تعالى، فعلى أي أساس اختار هذه الصفات؟ {... قُل بَلَى وَرَبِّى لَتَأتِيَنَّكُم عَلِمِ ٱلغَيبِ لَا يَعزُبُ عَنهُ مِثقَالُ ذَرَّةٍ...} ذكر وصفًا لربنا سبحانه وتعالى، فلماذا ذكر هذا الوصف تحديدًا في الردِّ على هذه الشبهة؟

لأن الإنكار كان لأحد سببين:

- إما لأنه لا يرى قدرة الله تعالى فيقول: لا يعقل، لا يمكن أن يحدث هذا، فتذكره بآيات تدل على القدرة،
- أو أنه أنكر لأنه خائف من أعماله، فتقول له: أعمالك محصاة، لا توجد ذرة فعلتها إلا وهي مكتوبة.

نفس المعنيين (**العلم أو القدرة**) ذكرهما المفسرون في تفسير آية سورة لقمان: {يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثقَالَ حَبَّةٍ}[لقمان:١٦] ما معنى تكُ؟

- معناها: لو فعلت أمرًا ما، أي عمل سواء حسنة أو سيئة، فعلته في صخرة أو في السماوات أو في الأرض {يَأتِ بِهَا ٱللَّهُ}، ستحاسب عليها يوم القيامة،
- وقيل أيضًا: {إِن تَكُ} أي إن كان هناك شيء مختبئ في صخرة أو في السماوات أو في الأرض {يَأتِ بِهَا ٱللَّهُ} أي يعلمها الله.

فتكون الآية إما المقصود منها القدرة؛ فالله عز وجل القادر على أن يأتي بأي شيء، أو العلم التام بكل أفعالك فستحاسب عليها.

فهنا أيضًا: {لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ} أي لا يغيب عنه {مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ}

الساعة تأتي لأن الله هو الرب ولأنه سبحانه حكيم

لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

لماذا تأتي الساعة؟ لأن الله حكيم، **الحياة ليست عبثًا، فلا يتساوى فيها من اجتهد بغيره، ولا من صبر بمن لم يصبر، ولا الصائم بمن لا يصوم، ولا المصلي بمن لا يصلي أبدا.**

{لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مغفرة...} وبدأ بالمغفرة، لأن أهل الإيمان مهما عملوا لن يستطيعوا أن يشكروا الله عز وجل حق شكره، مهما فعلوا! لأن نعم ربنا سبحانه وتعالى عظيمة، لا بد أن يشعر الإنسان دائمًا بالتقصير.

{أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ}:

- قيل أن الرزق الكريم هو الذي يأتي بدون تعب، تجلس في الجنة وبمجرد أن تتمنى الشيء تجده {وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ}[الزخرف:٧٣]، إذا اشتهيت شيئا تجده أمامك مباشرة، لا تنتظر لتذهب وتطلب وتنتظر وتحاسب ثم لا تجد معك مالًا وتقع في مشكلة، مجرد {ما تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ} تجده فورا عندك.
- وقيل أن الرزق الكريم هو الذي لا ينقطع، بالإضافة لكونه بغير تعب.

الذين آمنوا مقابل الذين سعوا

{لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ}

- {الذين آمنوا}؛ هذا هو الصنف الأول،
- أما الصنف الثاني فهم {الذين سعوا} لم يسمهم الكفار، ذلك لأن جو السورة يشير إلى أن أهل الباطل لديهم أموال وجهود كبيرة للصد عن الدين.

كما تدارسنا سابقًا واقع سورة الحديد، ولماذا جاءت تلك المقدمة الرهيبة في سورة الحديد في الكلام عن الله عز وجل، لأن واقع سورة الحديد واقع ضيق واستضعاف، وتبشير بأن الفرج قريب. {لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ} [الحديد:١٠] لحظة جهاد، وطلب للخروج إلى الجهاد مع أنها مرحلة مدنية، لكن هنا أنت مطالب أن تجاهد جهاد السيف، ذُكر النور والقتال والتفرقة والدرجات والمنافقين مرات كثيرة في السورة وشرحنا لماذا. إذًا؛ الأمور التي ذكرت في سورة الحديد متناسبة مع واقع السورة، كذلك هنا بالنسبة لما سيأتي معنا.

فهنا يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ سَعَوْا}، **بمعنى أن هؤلاء الناس كانوا جادِّين، فأهل الباطل لا يلهون، ويبذلون مجهودًا هائلًا للصد عن سبيل الله**، مجهود لا يتخيله أحد، فمثلًا كمُّ الأموال التي أُنفقت في رمضان الماضي في سبيل ألا يصلي الناس؛ أنت لا تتخيلها، أنت تعتقد أنه مجرد برنامج ترفيهي وانتهى، ولكنك لا تعلم ما وراء هذا، أنت لا تعلم ماذا فعل مُعِدُّوه لكي يجعلوك تشاهد البرنامج ولا تذهب لصلاة العشاء، فيحددون موعد البرنامج الهزلي على أن يكون قبل أذان العشاء بقليل؛ حتى تقعد عن الصلاة بعد أن أكلت وأُتخمت! وأنت لا تدري الكم الذي أنفق على تلك الخمس عشرة دقيقة أو النصف ساعة، والمجهود الكبير الذي قام به معدُّو البرنامج، وهذا سعي وبذل، وقد قال الله تعالى في هذا الشأن موضحًا أن أهل الباطل يسعون على فكرتهم مثلما يسعى أهل الإيمان على فكرتهم، فقال تعالى: {إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء:١٠٤]، أي أنهم يبذلون مجهودًا كبيرًا ولا ينامون، وقال تعالى {وَالَّذِينَ سَعَوْا} ولكن سعي أهل الضلال مُركَّز، ليس عبثًا، هدفه إسقاط الأكابر، وقد يعمل الإعلاميون والمفسدون قليلو الخبرة بشكل عشوائي، لكن المستكبرين والأكابر لهم منهج وخطة محكمة يسيرون عليها.

ما هو منهجهم؟ منهجهم كما قال الله تعالى في سورة الجن: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} [الجن:٤] سفيهنا: أي الشيطان، كان الشيطان يعلمهم العقيدة {على الله}، كما قال الله في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ} **كان تركيز الشيطان بالكامل منصب على إبعاد الناس عن الله**، فكان دائمًا منتبه لأن يتحدث أولًا في العقيدة ويقطع تلك الصلة بين الناس وبين الله، حتى يكون سهلًا عليه بعد ذلك الصد والحديث عن الذنوب والمعاصي.

قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}، و{في} تعني بتعمق، بمعنى أنه لم يكن تعاملًا سطحيًا،

- و{آياتنا} فسرها غالب المفسرين على أنها القرآن، بدليل الآية التي تليها وهي قول الله سبحانه وتعالى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} والمقصود بـ{الذي أنزل إليك من ربك} القرآن،
- وفُسِّرَت{آياتنا} أيضًا تفسيرًا آخر بأنها الآيات الكونية.

إذا قسنا على التفسيرين، سنرى أنهم بذلوا كل طاقتهم - {سَعَوْا} تعني أنه قام بأقصى ما يستطيع- فالسعي يعني بذْل الوُسع، {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}، ليس تعاملًا سطحيًا. فهو يقوم بأبحاث ودراسات، وينفق، ويعمل بعمق وجهد، ليصوغ كلامًا يقنع به من أمامه بشُبهات في القرآن.

أهداف أهل الباطل وتكاتفهم للوصول إليها

لماذا هذا الجهد كله؟ {مُعَاجِزِينَ} ومعنى {معاجزين} أي يريدون أن يُظهِروا أنها عاجزة، وفي قراءة متواترة، {والذين سعوا في آياتنا مُعجّزين}، فقال المفسرون أن أهل الباطل يستهدفون شيئين:

١- الآيات، الآيات الكونية، وآيات القرآن.
٢- الناس، المستفيدون من القرآن.

فالناس يستفيدون من نزول القرآن؛ وإذا استفادوا فسينتشر الهدى في الأرض.

فأهل الباطل يهدفون إلى:

١- أن يقولوا لك أن آيات القرآن عاجزة.
٢- أن يمنعوا الناس من الوصول لها وفهمها.

(يُعجّز) تعني يثبط، فهو يعمل لصد الناس عن الآيات، ولكي يحقق الهدفين؛ **يعرض برنامج شبهات، وبرنامج شهوات. فبرنامج الشبهات يضاد الآيات، وبرنامج الشهوات يمنع الناس من الوصول**

للآيات، ويتكاتفون بتقسيم ذلك العمل على بعضهم البعض، كما في قول الله عز وجل: { كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ }[الحجر:٩٠-٩١]، وقد شرحنا هذا المعنى في أواخر سورة الحجر. قال المفسرون أن {المقتسمين}

- تعني القَسَم (الحلف بالله)،
- أو تعني الاقتسام أي التوزيع. وقالوا في الاقتسام: أن أهل الضلال كانوا يقسمون مسؤولية مداخل مكة بينهم، فيكون كل شخص مسؤولًا عن مدخل، وكل شخص مسؤولًا عن شبهة. فيتولى شخص أمر مدخل محدد في مكة مع علمه بأن قبيلة كذا تُفكِّر بشكل معين، فيجد لها مدخلًا فكريًا ليتحدث منه معها وينشر فكره؛ فإذا كانت تتمتع بالفكر فيقول بأنه شاعر، وآخرون ليسوا مفكرين بل جهلاء فيخبرهم بأنه مجنون، وآخرون يخبرهم بأنه كاهن لأنهم يخافون من السحر.

يقسمون العمل على بعضهم البعض، فيعمل شخص على الطعن في البخاري، وآخر يتحدث عن الشهوات، وآخر يشكك في فهم العلماء للقرآن وبأنهم ليسوا ثقة، وكلٌ على هذا المنوال. هذا كله بذل فيه تعب، وسعي كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} فقلنا معاجزين: تعني أنهم يريدون أن تظهر أن هذه الآيات عاجزة! فيقولون: "ماذا يعني القرآن؟!، فيم يؤثِّر؟! لا يؤثِّر في شيء!". ويريدون أن يُعجِّزوا الناس ويُثبطوهم عن الاستماع للقرآن والوصول إليه.

يقول ابن زيد في تفسير هذه الآيات، أن من معاني {معجّزين} هو {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ}[فصلت:٢٦] فقام الضال بالفعلين، يريد أن يبعد الناس عن القرآن، كما أنه يقول لهم أن هذا القرآن لا يستحق أن يُسمَع، هو لا يكفيه ألا تستمع -تنصت- إليه فقط، بل يريد منك ألا تسمعه أساسًا! ولا حتى سماعًا عابرًا! لئلا تفكر فيه، ولا يكتفي أهل الباطل بهذا! بل {وَالْغَوْا فِيهِ} مثل الأغاني، وأحاديث اللغو، قال الله تعالى { أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ } [النجم::٥٩-٦١]. قيل: {أفمن هذا الحديث} أي من القرآن، وقيل من أحد معاني {وأنتم سامدون} أي وأنتم تغنُّون أثناء تلاوة القرآن، أي عندما يُقرأ القرآن يبدأون بالغناء.

عذاب من يريد للناس أن تعيش بعيدا عن الوحي

{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}، هؤلاء لهم عذاب مخصوص: {لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ}،

- معنى الرجز: هو النَجَس والقذارة، فكان أهل الباطل يريدون للمجتمع أن يعيش بعيدًا عن الوحي، **والبعد عن الوحي يجعل المجتمع قذرًا، لأنه غير متصلٍ بالسماء، كله شهوات،** فقال تعالى: {لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ}
- وقيل في معنى الرجز: أشد ألوان العذاب، وهو لهؤلاء على وجه الخصوص. فهذا ليس مجرد فرد واحد ارتكب معصية، ولا فرد واحد كان يصد عن سبيل الله، بل كان هذا الشخص يريد أن يقطع الصلة تمامًا بين السماء والأرض، قال تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ}[الحج:١٥]، كان هذا الشخص الضال يريد أن يقطع الناس عن الوحي ويُظهِر أن الوحي عاجز، فقال الله تعالى فيهم: {لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ}.

إذًا؛ فهؤلاء الناس يبذلون مجهودًا ضخمًا في إنتاج برامج شهوات وبرامج شبهات لصرف الناس عن الدين؛ فهم معهم أموال وتمكين ومعهم أسباب، فيبذلون كل مجهودهم لصرف الناس عن الدين.

ما نتيجة سعيهم وبذلهم؟

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

المفترض أن النتيجة الطبيعية لهذا البذل هو أن يُفتن غالب الناس في الدين، ويرون أن هذه الآيات ليست حقًا، فيقول الله تعالى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ}.

قوله تعالى {ويرى} أي: ورغم كل هذا المجهود لصرف الناس عن الدين، فسيظل هناك أناس "يرون" لا يعلمون فقط بل "يرون" الآيات بشكل واضح، ويفهمون معانيها.

لذلك قيلت لفتة جميلة -لا أتذكر من القائل الغازي أم غيره- قال: "عندما يتكلم الله مع أهل الإيمان، لم يقل: "والذين سعوا في نشر آياتنا"! بل قال -جل وعلا- {والَّذِينَ آمَنُوا}، وقال {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، بينما عندما ذكر الله تعالى أهل الباطل قال: {سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}، لأن الآيات واضحة ولا تحتاج بذل وسعي لإثبات أنها معجزة، فبمجرد إيمانك بالقرآن ونشرك له وتطبيقه عمليًا في الواقع تظهر المعجزة مباشرة، كما تكلمنا في مرحلة الفرقان، بينما ليُثبِت أهل الباطل أن القرآن ليس بمعجزة؛ يبذلون مجهودًا ضخمًا ويتعبون، ويسعون، ويبذلون، وينفقون.

أنا أتعجب عندما أسمع {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[الأنفال:٣٦]

لقد صار الكفار على حالهم هذه من الكفر لأجل الدنيا، فينفقون من دنياهم لإثبات أن القرآن ليس بمعجزة؛ لأن القرآن يؤثر على دنيا الكافر، فمن باب المصالح والمفاسد بالنسبة له أن ينفق جزءً من المال ليصد عن سبيل الله. تخيل! أن ينفق الأموال التي يحبها لكي يصد عن سبيل الله! نعم، إنفاق النقود التي يحبها -بالنسبة له- أفضل من انتشار دين الله. فقال الله تعالى لهم: {فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً}[الأنفال:٣٦].

(ويرى) تعني أنه سيظل هناك أناس رؤيتهم لمعاني الآيات واضحة، بالرغم من بذل وسعي أهل الضلال الذين قال الله تعالى فيهم: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} -أهل الضلال الذين يريدون التشويش على الآيات، ويريدون أن تلتبس الآيات على الناس، وأن تكون الآيات غير واضحة، وأن يُظهِروا الآيات عاجزة، وبها مشاكل وعيوب- **رُغم كل هذا سيظل هناك أُناس رؤيتهم للآيات واضحة، لا يعلمون الآيات فقط وإنما يرونها بوضوح. من سيكون هؤلاء؟ ليس أي أحد، وإنما هم {الذين أوتوا العلم}**، ففي زمن الفتن لا يرى الكل الآيات واضحة جلية.

{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}

هؤلاء ليسوا أي شخص، أي في زمن الفتن ليس كل شخص يرى جيدًا، غالب الناس يُفتن، وهذا هو **دور أهل العلم هنا؛ أن هؤلاء الذين يرون الحق فلا بد أن يجهروا بالحق، لأن أهل الباطل مجهودهم ضخم**، لذلك جاءت هنا في السورة المستكبرين والمستضعفين، وأن المستضعفين خُدِعُوا {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} **فلا بد أن يكون هناك جُهد في الليل والنهار يقابل مكر الليل والنهار، لتوضيح الحق. لا بد!**

ما هو العلم الحقيقي؟

ومن أوتوا العلم يتكلمون بالحق ويوضحونه {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} **هذا هو العلم الحقيقي؛ العلم بالوحي، لكيلا تُفتَن، أي علم ما سوى الوحي لا يستحق أن يسمى علمًا حقيقة، إلا إذا كان هذا العلم سيوصلك لمعرفة الله الذي نزَّل الوحي**، إذًا هذا هو العلم، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا} ماذا؟ {الْعِلْمَ}.

القرآن هو الحق الأوحد الذي يمكن أن يطبق

ماذا يرون؟ {الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} ما هو؟ القرآن، {الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} لم يقل "الحق" بل قال {هُوَ الْحَقَّ}، ما فائدة {هو} هنا؟ لا يوجد حرف زائد في القرآن! {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} كان من الممكن أن يكتفي بقول "الحق" فقط، لكنه قال: {هو الحق} أي هو وفقط! ماذا يعني هو فقط؟

ماذا كانوا يريدون؟ ماذا كانوا يفعلون عندما رأيتَ أن هذا هو فقط الحق؟ هم كانوا يطرحون أشياء كثيرة على أنها حق، أن هذا حق وذاك حق وهذا حق! -فتصبح لديك نظرية النسبية- فيبدأ يقول الناس لم أعد أعرف أين الحق، هؤلاء أم هؤلاء أم هؤلاء؟ فهم يريدون أن لا يصل أحد إلى الحق، يريدون أن يضلوا الناس! فكان أحد نتائج السعي في الآيات؛ أنه يريد أن يصل الناس إلى أنه لا شيء اسمه الحق! فيقول الناس: لا تقل لي إن هؤلاء على الحق، أنا لم أعد أصدق هؤلاء ولا هؤلاء ولا هؤلاء! فيذوب الحق ويختفي.

لكن الذين أوتوا العلم يعلمون أن هناك حق أوحد، هم يعلمونه ويرونه، لذلك "هو" في اللغة يُسمّى ضمير الفصل، يأتي للاختصاص أو التمييز، والكوفيون يطلقون عليه ضمير العماد. ماذا يعني؟

{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} ليس لأنه لم يخطئ، ليس "هو الحقُّ" أي {هو} ليست مبتدأ و{الحق} ليست خبرًا، بالرغم أن الضمير: "هو" دائمًا يأتي في محل رفع مبتدأ، والحق خبر، لكن لا؛ {الحقَّ} **جاءت منصوبة وإعرابها: مفعول به ثانٍ للفعل {يرى}، من الفاعل؟ {الذين أوتوا العلم} يرون القرآنَ الحق**. إذًا؛ {الحقَ} مفعول به ثانٍ للفعل {يرى}، وقالوا أن {هو} بدل من

{الذي} فيكون المعنى: "القرآن الحق". الشاهد؛ أن {الحق} لم تأت خبرًا للضمير {هو}، **فلماذا جاءت {هو}؟ لكي تؤكد أنه حق أوحد، لذلك قالوا لا يوجد لها إعراب**، لا تؤثر في الإعراب.

كآية الأنفال: { اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ}[الأنفال:٣٢] ليس "هو الحقُّ بالضم"، فإذا كان هذا هو الحق الأوحد لا حق غيره.. فنحن لا نريده، أي إذا كان هناك حق آخر قد ينزل سننتظره، لكن لو كان هذا القرآن هو الحق الأوحد ولا يوجد حق غيره فلا نريده! {أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ} حجارة من السماء أهون علينا من هذا الحق، لسنا قادرين على هذا، لن نقدر أن نتبع هذا الحق {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ}[يونس:١٥]!

في وسط البذل {يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} ليس فقط يرونه حقًا، بل {ويهدي} **أي يمكن أن يُطبّق**، فهو غير عاجز، هم يريدون أن يوصلوا للناس أن الحق عاجز وأن الشريعة لا يمكن أن تُطبّق؛ أما نحن نرى أنها هي الحق الأوحد الذي يمكن أن يطبق، هم يوصلون للناس أنها عاجزة عن حل مشاكل المجتمع، أما نحن فلا نرى أنها تنفع فقط؛ بل نرى أنها الحل الأوحد لحل مشاكل المجتمع، هو يريد أن يوصل للناس أن الشريعة أو الحدود أو الاقتصاد أو السياسة الشرعية.. أن كل هذا عاجز وفاشل، ويقومون بتجارب في الأرض حتى يثبتوا أن هذا الحق فاشل وعاجز، وفي وسط تجاربهم ومحاولتهم هذه أنت ترى أن القرآن هو الحق الأوحد {وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ} طريق مستوٍ.. {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}

نتائج اتباع القرآن

نتائج اتباع القرآن؛ النصرة والعزة والحمد. {الحميد} أي أن الله عز وجل يحمد أفعالك، أنت بدأت بحمد الله عز وجل، فهنا عندما تسير على طريق الله؛ الله عز وجل يحمد أفعالك.

قيل {الحميد} لها معنيان؛

- إما الحميد: أن الله عز وجل يحمد أفعال الأولياء،
- أو أنه هو يُحمد سبحانه؛ فالقرآن لا يُغالَب، هم {سَعَوْا فِي آيَاتِنَا} يريدون أن يغلبوا القرآن، ويريدون أن يظهروا أن القرآن عاجز، فيأتي الوصفان عكس ما أرادوا فعله، **القرآن لا يُغلَب**،

القرآن يُحمد، وليس عاجزًا، هم يريدون أن يصفوه بصفات النقص؛ ولكن الله عز وجل وصفه بصفات الكمال.

إذًا؛ نتيجة اتباع الوحي أنه هو الحق الأوحد ويهدي، هو يريد أن يصل لأقصى اليسار وأنت متمسك بقمة الحق، هو يريد أن يوصل الناس أن القرآن عاجز وأنت تقول له: هو الحق، بل هو الحق الأوحد، وقابل للتطبيق، ويهدي إلى طريق مستقيم، والنتيجة العزة والغلبة، ومهما فعلتَ ومهما بذلتَ مع الوحي؛ لن يُغالَب، ومهما انتقصتَ من الوحي؛ فهو محمود {يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}.

تغيير الذين كفروا لقولهم وخلق جو يساعد على استبعاد البعث

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

في البداية؛ عندما تكلمت أنت بـ{الحمد لله}، وأثنيت على الله؛ هم تكلموا عن أنفسهم {لا تأتينا الساعة} الساعة لن تأتي لنا نحن، فكان الرد عليهم: لا؛ الساعة ستأتيكم أنتم، ثم وجدك تتكلم بقوة وتُقسِم، وتشرح وتوضح، فقال: لا؛ حان وقت عمل أتباعنا فتبدأ البرامج والإعلام يعمل، وقالوا: {هَلْ نَدُلُّكُمْ} هم لا يتكلمون عن أنفسهم، بل بدأوا في النزول للناس ليقنعوهم بعدم وجود البعث!

في البداية كان يتكلم عن نفسه بصورة مبسطة لا يوجد فيها شيء {لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ} ثم تطور الخطاب، في الآية الأولى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ} أما في الثانية {وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...} وبدأوا النزول لينشروا فكرهم وبدأ الإعلام يعمل والترسانة الإعلامية تعمل، والأموال تُصرَف على الصد!

إذًا قاموا بتغيير:

١- أقوالهم.
٢- بدأ الكلام مع الناس.
٣- تغيرت طريقة الكلام..

لم ينزلوا للناس وقالوا لهم مباشرة: لن تأتيكم الساعة، لا؛ بل بدأوا بتكوين جو الفقه الإعلامي، والعرض الإعلامي، كيف يوصل فكرته؟ يوصلها بطريقة مثيرة ساخرة، دائمًا هذان الشيئان في الإعلام.. الإثارة والسخرية، أكثر شيئين ينتشرون وسط المجتمع.. شيء فيه إثارة.

قالوا: {هَلْ نَدُلُّكُم عَلَى رَجُلٍ} ما شأنه؟ {يُنَبِّئُكُمْ} نبأ.. تخيلوا هذا!.. وبنوع من السخرية، تخيلوا أن هناك أحد يقول كذا.. أو -كما قال بعض الناس- {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ} هذه تشبه بالضبط أن يقول أحدهم: "إن هناك رجل يقول إن الذي يسرق تُقطع يده تخيل!"

هذا شخص يستهزئ بالشريعة مثلًا، فيأتِ بها في أسلوب نكتة، يأتِ بها بأسلوب قصة، أو يقولون نحن سنأخذ فاصل الآن نريكم {نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ} يقول إن الناس عندما تموت في القبر بعد تعب الدنيا ستعذب، تخيلوا يوجد رجل يقول هذا!

{هَلْ نَدُلُّكُمْ} هم يقولون: تخيلوا وسنقول لكم الدليل {نَدُلُّكُمْ} نحن معنا الدليل وكل شيء مسجل.

{هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ} وأتوا بلفظ "رجل" نكرة، وهم النكرة، كأنهم يقولون: هل هناك عاقل يقول هذا الكلام؟

انظر إلى البداية، إلى طريقة الإعلام {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ} هو لديه شيء عظيم، يا ترى ماذا لديه؟

{هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ} هم يتهكمون على النبي صلى الله عليه وسلم، فيشوقون الناس إلى السؤال عنه، يقولون لهم "هذا الرجل جاء بشيء عظيم، أتعرفون ما هو؟" فيقتطعون جزءًا من فتوى مثلًا ويجعلون الناس تضحك عليها.

{إِذَا مُزِّقْتُمْ} ولم يقل: إذا مُتُّم؛ ليُساعد في تصوير الموقف على أنه مستحيل، كما كان يمسك العظام ثم ينسفها بيده وينفخها، ويقول {مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}[يس:٧٨]؟!

هذا الجو يساعد على استبعاد البعث؛ السخرية والإثارة {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا} لم يقل إذا مُتُّم بل {إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}، ولم يقل: "تبعثوا" بل قال: {إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} وتأمل كيف أتى

استخدام كلمة {جديد} للاستهزاء، فيتهكم قائلًا: "تصور أنك ستعود خلقًا جديدًا بعد موتك كما كنت"!! وتخيل لو أنهم استخدموا إعلام اليوم في استهزائهم؛ فينزلون إلى المقابر –مثلًا– ويأتون بجثة ويفتتونها، ثم يأتي بصورة للميت قبل موته وهو يجري ويلعب –مثلًا– ثم يقول: هؤلاء الإرهابيون يقولون أن هذا الميت سيعود خلقًا جديدًا مرة أخرى كهذا –الذي يلعب–!!، فاحكموا أنتم أيها المشاهدون على هؤلاء الإرهابيين.

حشد الناس في صفه قبل التصريح برأيه

فتأمل هو إلى الآن لم يقل رأيه صراحةً، ولن يبدأ بالتصريح به إلا بعد أن يتأكد من وصول فكرته لمن يسمعه، فلا يقول –من البداية– هذا الرجل مجنون، بل يريد أن يحشد الناس في صفه وهو يصرح برأيه.

ولذلك فرعون عندما أَرسلْ {فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الشعراء:٣٥] وقيل أتى السحرة أولًا في سورة الشعراء وبعد هذا أرسل للناس {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ} [الشعراء:٣٩]

الذي ذهب ليحشد الناس كان يوجههم فيقول: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء:٤٠]

ذهب يوجههم أننا سنتبع السحرة –وليس سيدنا موسى– وفي حالة واحدة وهي إذا انتصروا {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ} ماذا؟ {الْغَالِبِينَ}

كأنهم **يقولون للناس: أنتم ليس لديكم إلا اختيار واحد**، بالرغم من وجود اختيارات؛ وهو أن ينتصر سيدنا موسى عليه السلام مثلًا أو نتبع الفائز، لكنهم قالوا: لا؛ نحن سنتبع السحرة فقط، توجد حالة واحدة فقط، **فوجّه حكمهم مسبقًا**، وهذا الأمر بالطبع كُتبت فيه نظريات وكتب وأسست له معاهد وكليات وعلم؛ وهو **كيف يوجه الإعلام عقول الناس، وكيف يسرقها، وكيف يصنع العقل الذي يشاهده.**

{هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ} –نبأ– {إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} وأتى بـ {إذا} ولم يقل "إن مزقتم" لأنهم يعلمون أن **"إذا" تفيد التأكيد** .. {إِنَّكُمْ} –يقول لهم تخيلوا– {لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}

وضع نفسه في صورة الخائف على دين المجتمع

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾

يقول -بصوت عالٍ-: "يفتري على الله!!" كأنهم هم المتدينون، {أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}! ويقولها بتأثر أيضًا، وتأمل كيف يضع نفسه موضع المتدين المنتصر لله، كما قال فرعون من قبل {إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ}[غافر:٢٦] صور لهم فرعون نفسه في صورة الخائف على دين المجتمع، فهنا -أيضًا- يقول {أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} يقول للناس هذا -يعني النبي صلى الله عليه وسلم- إما أنه يفتري على الله كذبًا أو أنه مجنون، فهذا الكلام لا يقوله عاقل! {أَم بِهِ جِنَّةٌ} وتأمل هذا الخطاب الذي استعمله المشركون مع النبي؛ لو طُبق في برنامج إعلامي الآن لتبعه ألوف مؤلفة، أنا أحيانًا أشاهد فيديوهات بها نوع من الخَرَف، وأُفاجأ بوجود مثلًا أربعين أو مائة ألف مشاهد على المقطع!! ما هذا؟!، فعلًا الاستخفاف بعقول الناس سهل، كما عبد بنو إسرائيل {عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ}[الأعراف:١٤٨][طه:٨٨] **الناس تحب الخوار، تحب الحركات، ويمكنها إضلال الناس بسهولة جدًا.**

{بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ} **{العذاب} في الآخرة**، و **{الضلال البعيد} في الدنيا**، فالمشرك منشغلٌ بإنكار البعث، والله يقول له أنت مصيبتك مع الآخرة، أنت بدون آخرة -بالإضافة إلى عذاب الآخرة- ستعيش في الدنيا في ضلال، كيف نتصور الحياة بدون الدار الآخرة!! المظلوم كيف يعيش وتهدأ نفسه في الدنيا دون إيمانٍ بالآخرة؟! **يتحطم الإنسان نفسيًا إن لم يؤمن بالآخرة، لا يمكن إلا أن تكون هناك آخرة، وحكمة الله تأبى، فلا بد أن يأتي يوم يحاسب فيه الناس.**

{بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}

نكتفي بهذا القدر ونكمل المرة القادمة، هذه الآية مع قصة سيدنا داوود وسليمان.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك... جزاكم الله خيرًا.